مجلة كلية

الدعوة الإسلامية

مجلة إسلامية - ثقافية - جامعة

العدد الخامس

1988م.

- المعارف اللازمة للداعية
- المحاولات الإستعمارية لتقويض الإسلام في الجزائر
- منهج الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور في إصلاح التعليم الإسلامي
- الفكر التربوي بين الأصالة والتغريب
- جامعة الزهراء جامعة علمية يخسرها العالم الإسلامي

معركة عين جالوت
مرآة الماضي للحاضر

الأستاذ
مروان شيخ الأرض

مقدمة:

الحياة الإنسانية صراع دائم بين الخير والشر، وبين الحق والباطل. والتاريخ سجل حافل بأحداث هذا الصراع، يبحث في أسبابه ونتائجه. والمربي يستخلص العبر والدروس ليقدمها للناس فيستفيدون منها في صنع حياة أفضل ويتجنبون عوامل الوهن والضعف.

والأمة العربية في هذا الصراع الأبدي تتعلم لتصنع العزة والكرامة، ولتنجب رجالاً يحملون

مسؤولياتها بقوة وثبات، ويزيلون عنها رواسب التخلف والانقسام، ويبنون للأجيال القادمة صرح الكفاية والعدل والمجد.

وإذا خيّم الظلام يوماً، وإذا جلجل العدوان حيناً، وظن أعداء الأمة العربية أنها في درب الزوال تتراجع وتهوى.

فالتاريخ يشهد لها بأنها أعظم من أعدائها وأبقى، وقدرتها على صنع المجد والعزة والكرامة أكبر بكثير من عوامل الفرقة والضعف والخوف.

فها هي ذي الهجمة الصليبية تسعى إليها من الغرب، وها هي ذي الهجمة التترية تزحف إليها من الشرق، فيولد من بلاد خوارزم فتى يشب على المحنة، ويكبر في الأسر والعبودية، وينمو الإيمان في قلبه، ويعظم الإسلام في وجدانه فينذر نفسه فداء لأمته ليوحد شعبها ويصنع قوتها ويحرر أرضها.

إنه يحلم بتحقيق النصر لدين الله ويحلم بالانتقام من التتر.

وتمضي مسيرته الظافرة، ويتسلم زمام الأمور في مصر، حيث يبذل شعبها المؤمن الصابر المجاهد كل شيء فلا يبخل برجاله ولا يتوانى عن إنفاق نفسه من أجل عزة العرب والإسلام.

وبقيادة هذا البطل المظفر، وبدماء وتضحيات شعب مصر الأبي وأشقائه المخلصين، يسجل التاريخ صفحة خالدة على ثرى فلسطين في منطقة عين جالوت. هناك تحطمت أسطورة الجيش الذي لا يقهر، ورسمت نهاية الغزو التتري، تماماً مثلما وضعت حطين «صلاح الدين الأيوبي» نهاية للغزو الصليبي، وكما ستضع أمتنا العربية نهاية الغزو الصهيوني على أرض فلسطين العربية المسلمة.

والأمة العربية اليوم تتطلع إلى حطين جديدة، وعين جالوت جديدة، وإلى رجال مثل قطز القرن السابع الهجري، وصلاح الدين القرن السادس الهجري، ومثلما كان النصر آنذاك فإن النصر قادم بإذن الله.

فليدرس العرب والمسلمون التاريخ، ويعلموا أبناءهم العبر العظيمة والأسس التي تجعلهم بناة غدهم المشرق العزيز «وما النصر إلا من عند الله».

زمن معركة عين جالوت:

الجمعة 25 رمضان 658 هـ ـ 3 أيلول 1260 م.

قائد معركة عين جالوت:

إنه قطز بن عبد الله المعزي[1] ـ سيف الدولة ـ ثالث ملوك الترك المماليك بمصر والشام، كان مملوكاً للمعز أيبك التركماني، وترقى إلى أن كان في دولة المنصور بن المعز أتابك العساكر(*) ثم خلع المنصور، وتسلطن مكانه سنة 657 هـ أوائل ذي الحجة الموافق تشرين2 1259 م[2]، استمر ملكه بمصر أقل من سنة حيث قتله الظاهر بيبرس في 17 ذي القعدة عام 658 هـ[3].

نسب المظفر قطز:

ينتسب قطز إلى أسرة السلطان جلال الدين خوارزم شاه. فوالده (ممدود) كان ابن عم السلطان، وأمه جيهان خاتون كانت أخت السلطان[4]، وقد سماه أبوه وقت ميلاده باسم محمود، غير أن الفتى وجد نفسه بعدئذ في ظروف أرغمته على اختياره اسم «قطز» الذي اشتهر به بعد ذلك.

نشأته:

نشأ محمود نشأة فروسية وبطولة في بلاط خاله السلطان جلال الدين، غير أنه وهو في الثامنة من عمره وقع أسيراً مع ابنة خاله «جهاد» بيد أعداء السلطان من الأكراد، وباعوهما في سوق النخاسة بحلب، حيث اشتراهما تاجر دمشقي صاحب أدب وتقوى، وعهد هذا التاجر إلى بعض العلماء تربية محمود، الذي

---

(1) الأعلام للزركلي.

(2) المختصر لأبي الفداء 196/2.

(*) أتابك العسكر: لقب أتابك يعني أمير الجيوش ومن في معناه ـ الأب الأمير ـ صبح الأعشى سفر 3 ص 372.

(3) ابن خلدون جـ 5 ص 380.

(4) والإسلام ـ علي أحمد باكثير.

سمي نفسه بـ(قطز) خشية وقوعه بيد أعداء خاله من التتر وقد أحسن التاجر الدمشقي تربيته ورعايته كما لو كان ولده.

تتلمذ قطز[5] في دمشق على الشيخ العلامة المجاهد عز الدين بن عبد السلام الذي وثق به وائتمنه على أسراره، وعرفه على العديد من الشخصيات السياسية الشامية، وتعرف أحوال الوطن العربي والعالم الإسلامي معرفة رجل يترقب الانتقام من أعداء دينه وبلاده وأسرته ـ التتر ـ كما كان ملمّاً بأحوال بلاد الشام والأناضول ومصر وما تعانيه من بلاء الصليبيين الذين مضى على وجودهم على أرض الإسلام أكثر من قرن ونصف.

صعود قطز إلى القمة الحربية والسياسية:

انضم قطز إلى جيش دمشق، وسلطانها آنذاك «الملك الصالح إسماعيل» الذي هادن الصليبيين، واستعان بهم في حربه ضد الملك الصالح أيوب صاحب مصر، وفي المعركة التي وقعت بين الملكين في 17 تشرين الأول 1244 م، تمكن قطز من لعب دور عظيم غيّر موازين المعركة وبدل الساحة ـ السياسية في المنطقة.

اتفق قطز سراً مع عدد من رجال جيش دمشق على الانضمام إلى جيش مصر والهجوم على الصليبيين حلفاء الملك الصالح إسماعيل ملك دمشق، وفي أثناء المعركة صاح قطز «واإسلاماه، واإسلاماه» فانضم إليه رجاله وكثير من الجنود الآخرين. ثم انضم إلى صف جيش الملك الصالح أيوب ملك مصر وتدفق الجنود كالسيل الجارف على جيش الصليبيين وسقط منهم عدد هائل من القتلى[6] وكان النصر المؤزر حليف جيش مصر، الهزيمة الساحقة لملك دمشق وحلفائه الصليبيين. وقد حصل قطز بذلك على مكانة مرموقة بعد النصر في مصر، وتولى قيادة فرقة في جيش عز الدين أيبك الذي جعله نائباً وعوناً من أقرب أعوانه والمخلصين له.

---

(5) ص 158 من كتاب مع الأبطال لمحمد رجب بيومي.

(6) سميت هذه المعركة بحطين الثانية.

الأحوال العامة في العالم الإسلامي:

كان هولاكو ملك التتر يجتاح بلاد الشرق الإسلامي ويدمر مدنه وعواصمه، وكان سقوط بغداد بيده يوم 20 محرم 656 هـ[7]، فقتل الخليفة المستعصم بالله وجميع أفراد عائلته وحاشيته وخدمه بعد أن أعطاه الأمان.

وشاع القتل والنهب والسلب والدمار في بلاد النهرين حيث قتل في أسبوعين أكثر من مليوني نسمة، وألقى التتر المتوحشون كنز المعرفة والعلوم «مكتبة بين الحكمة» في نهر دجلة، ومن بقي حيًّا من أهالي بغداد صار أسيراً.

وتسارعت الأنباء إلى مدن الجزيرة والفرات وحلب وحماه ودمشق فإلى فلسطين ومصر، ودبّ الخوف والفزع في أوصال الناس ومن امتلك منهم القدرة على الهرب، ترك الديار والأقارب ويمم شطر إفريقيا.

أما دمشق فإنها كانت تعاني من وباء شديد حتى لم يوجد مُغَسِّلٌ للموتى، وكان ملكها الناصر يوسف الذي أرسل إلى هولاكو التحف والهدايا يطلب منه الأمان والسلام لعلمه بعجزه عن مقاومتهم، أما الموصل فإن ملكها بدر الدين قد صالح هولاكو ودخل في طاعته وحمل إليه الأموال ووصل إلى خدمته.

وقد وصل التتر إلى حلب في اليوم الثاني من شهر صفر سنة ستمائة وثمان وخمسين فحاصروها سبعة أيام ثم افتتحوها بالأمان، ثم غدروا بأهلها وقتلوا منهم خلقاً كثيراً ونهبوا الأموال وسبوا النساء والأطفال وجرى عليهم ما جرى على أهل بغداد[8]. وعندما عرف صاحب حماه ما وقع لأهل حلب أرسل مفاتيح مدينته إلى هولاكو وهو لا يزال في حلب[9].

التحالف بين التتر والصليبيين:

كانت زوجة هولاكو وهي مسيحية نسطورية تدعى «دوقوز خاتون» مخلصة لعقيدتها، فعملت دائماً على مؤازرة المسيحيين، وبذلك قوى حال تلك الطائفة في

---

(7) المختصر لأبي الفداء جـ3 ص193.

(8) البداية والنهاية جـ13 ص218.

(9) انظر مصدر الغزو الصليبي والتتري للبلاد العربية والإسلامية.

عهدها، كما كانت أم هولاكوا نفسه «سيور قوقيتي» نسطورية أيضاً رغم أن هولاكو ظل بوذياً[10]. وكان كتبغا «نائب هولاكو في حلب» شيخاً مسناً ميالاً إلى دين النصرانية، ولكنه أخفى ذلك لعدم استطاعته الخروج عن حكم جنكيز خان في الياساق[11].

وكانت ممالك الصليبيين في بلاد الشام والأناضول تعاني من هزائم متلاحقة بعد هزيمتهم في حطين عام 1187 م، كما كانت تعاني من انقسامات داخلية[12] بين فرقها العسكرية وفرسانها.

وقد تعرضت حملتهم الجديدة على مصر بقيادة الملك لويس التاسع إلى هزيمة نكراء حيث أسر الملك لويس وتقدم بفدية بالغة لسلطان مصر.

لهذا كله أدرك الطرفان (التتار والصليبيون) المصلحة المشتركة التي تدفعهم إلى التحالف ضد العرب والمسلمين، فتبادلوا الرسائل لهذه الغاية، وقد عرض الصليبيون على المغول القيام بالاتفاق على المسلمين وقطع الطريق على قواتهم الزاحفة من مصر إلى الشام للقاء التتر.

زحف التتر على بلاد الشام ومصر:

أرسل هولاكو جيشاً بقيادة «كتبغانوين» فورد دمشق في آخر صفر من عام 658 هـ ، فأخذها دون مقاومة من أهلها وضرب القلعة، وأسوارها بالمجانيق في منتصف جمادى الأولى، وقتل عدداً من أشرافها وعلمائها، وسلم القلعة إلى أمير تتري يدعى «ابل سيان»[13] وكان هذا الأخير معظماً لدين النصارى فاجتمع به أساقفتهم وقساوستهم، فعظمهم جداً وزار كنائسهم في الوقت الذي أهان فيه رجال المسلمين وعلماءهم، وكان سيان يريد من ذلك إشاعة الانقسام والتفرقة بين أبناء البلد الواحد، وكان مما عمله أن حرص البعض على القيام بأعمال مخلة باحترام المساجد وقدسيتها.

---

(10) الحركة الصليبية ـ عاشور ـ جـ 2 ص 1112.

(11) البداية والنهاية جـ 13 ص 227.

(12) بين الداوية والاسبتارية.

(13) البداية والنهاية جـ 13 ص 219.

الصليبيون الفرنجة يغيرون على نابلس:

وفي أيام الملك الصالح أيوب أغار الفرنجة على نابلس وأعملوا فيها القتل والسلب ولم تتخذ الأمة رداً على إجرامهم مما جعل الشاعر الناصر داوود يكتب قصيدة ويرسلها إلى الشيخ العز بن عبد السلام يصور فيها ما آلت إليه أحوال الأمة والبلاد ويتمنى فيها لو لم يُخلَق فيقول:

أيا ليت أمي أيَّمٌ طول عمرها ... فلم يقضها ربي لمولى ولا بعل
ويا ليتها لما قضاها لسيد ... لبيب أريب طيبَ الفرع والأصل
قضاها من اللائي خلقن عواقراً ... فما بشرت يوماً بأنثى ولا فحل
ويا ليتها لما غدت بي حاملاً ... أصيبت بما أحتفت عليه من الحمل
ويا ليتني لما ولدت وأصبحت ... تشد إلى الشدقميات[15] بالرحل
لحقت بأسلافي فكنت ضجيعهم ... ولم أرَ في الإسلام ما فيه من خل

العز بن عبد السلام والمظفر قطز:

وتهز هذه الأبيات ضمير الأمة ووجدانها وتحرك كوامن طاقاتها، وتبعث الهمة في نفوس رجالها، إنهم يستمعون في مسجد بني أمية في دمشق إلى دَوي الإيمان والجهاد ينطلق من شيخها الجليل وعالمها الكبير العز بن عبد السلام ويشخص الواقع المرير ويفضح التحالف القائم بين ملك دمشق والصليبيين، ويوجه الأنظار إلى خطر التتر الزاحف على الديار، ويدعو الأمة إلى الوحدة ونبذ الشقاق والخلاف. ولا يستطيع الملك الصالح عماد الدين إسماعيل صاحب دمشق، أن يواجه تلك الصيحة فيأمر باعتقال الشيخ عز الدين بن عبد السلام، وعزله عن الناس، فتنطلق جماهير الأمة بعد صلاة الجمعة مطالبة بإطلاق عالمها وموحد كلمتها، فيضطر الملك إلى نفيه إلى مصر، للتخلص من خطره وتستقبل مصر الشيخ العز استقبال الأبطال المجاهدين، ذلك لما كان بين العز والملك الصالح أيوب ملك مصر من مراسلات لتحقيق الوحدة ضد العدوين التتري والصليبي.

---

(14) المختصر لأبي الفداء جـ3 ص196.

(15) الشدقميات: حزام الرضيع.

ولم يمض إلا القليل على وصول العز إلى مصر حتى يقوم الملك الصالح إسماعيل بالهجوم على جيش الملك الصالح أيوب ويكون انضمام المظفر قطز إلى جيش مصر بداية عظيمة للمواجهة الحاسمة.

ويعود قطز إلى أستاذه الشيخ العز بن عبد السلام يرتشف منه العلم ويتابع النظر ويشاوره في أموره الخاصة، وأمور البلاد العامة، ومصر يومها تشهد صراعات مستمرة على السلطة في الداخل، وأخطار الغزو الصليبي والتتري من الخارج.

مصر وأنباء الغزو الأجنبي:

شارك قطز في معركة دمياط ضد الصليبيين، وكان دوره في القتال جمع الكتائب، واختراق صفوف العدو، وفي تلك المعركة كتب الله النصر للمسلمين والهزيمة للصليبيين وتم أسر الملك لويس التاسع الذي قاد الحملة بنفسه على مصر.

وقد قدم وفد من دمشق[16] برئاسة القاضي الوزير كمال الدين عمر بن أبي جرادة المعروف بابن العديم إلى مصر يستنجد همم المصريين على قتال التتر الذين اقترب هجومهم على بلاد الشام. وفي القاهرة انعقد مجلس رفيع المستوى بين يدي المنصور علي بن المعز التركماني حضره: قاضي مصر بدر الدين السنجاري والشيخ العز عز الدين بن عبد السلام. وتشاور الحضور فيما بينهم بشأن جمع الأموال من الشعب لمساعدة الجند، وكان الشيخ قد اصطدم مراراً مع المماليك بشأن سوء علاقتهم مع العامة من شعب مصر. قال الشيخ العز بن عبد السلام مخاطباً المماليك:

«إذا لم يبق في بيت المال شيء ثم أنفقتم أموال الحوائض المذهبة وغيرها من الفضة والزينة وتساويتم أنتم والعامة في الملابس سوى آلات الحرب بحيث لم يبق للجندي سوى فرسه التي يركبها، صاغ للحاكم حينئذ أخذ شيء من أموال الناس في دفع الأعداء عنهم، لأنه إذا دهم العدو البلاد وجب على الناس كافة

---

(16) البداية والنهاية جـ 13 ص 215.

دفعهم بأموالهم وأنفسهم».

وكان المنصور علي بن المعز التركماني شاباً ضعيفاً تولى مقاليد الأمور في مصر بعد مقتل أبيه، والصراع على السلطة قد بلغ أشده بين طوائف المماليك، مما جعل المنصور عاجزاً عن اتخاذ موقف حاسم حيال ما يدهم الأمة من أخطار. وقد دفعت هذه الاعتبارات جميعها قطز لإنقاذ الموقف والسيطرة على مقاليد الأمور في البلاد.

ولاية قطز على مصر:

قبض المظفر قطز[17] على ابن أستاذه نور الدين علي الملقب بالمنصور، وسيره مع أمه وابنيه وإخوته إلى بلاد الأشكري[18]، ونصب نفسه حاكماً واتخذ لقب (الملك المظفر)، وقد برّر ذلك أمام ابن العديم[19] وبحضور الفقهاء والقضاة بقوله: «لا بد للناس من سلطان قاهر، يقاتل عن المسلمين عدوهم، وهذا صبي صغير لا يعرف تدبير المملكة (يقصد المنصور علي بن المعز التركماني).

ولما استقر الأمر للملك المظفر قطز في سلطنة مصر كتب جواباً إلى الملك الناصر يوسف يعلمه فيه أنه سينجده ولا يقعد عن نصرته. وقد حمل هذا الجواب ابن العديم رسول الملك الناصر إلى مصر قبل استيلاء قطز على السلطة بقليل.

يتبين من ذلك مدى تأثر الأوضاع السياسية الخارجية بالأوضاع السياسية الداخلية في مصر حيث لا يمكن فصلهما كما لا يمكن أن تعيش مصر في معزل

---

(17) البداية والنهاية جـ13 ص216.

(18) الأشكري: الأشكر قرية من قرى مصر الشرقية/ معجم البلدان.

(19) ذكر أبو الفداء في كتابه المنتصر جـ3 ص199 في أواخر هذه السنة 657 هـ أوائل ذي الحجة قبض سيف الدولة قطز على ولد أستاذه الملك المنصور نور الدين علي بن المعز أيبك وخلعه من السلطنة وكان علم الدين الغتمي وسيف الدين بهادر وهما من كبار المعزية غائبين في رَمْيِ البندق فانتهز قطز الفرصة ـ في غيبتهما وفعل ذلك، ولما قدم الغتمى وبهادر المذكوران قبض عليهما قطز أيضاً واستقر قطز في ملك الديار المصرية وتلقب بالملك المظفر وكان رسول الملك الناصر يوسف صاحب الشام وهو كمال الدين المعروف بابن العديم قد قدم إلى مصر في أيام الملك المنصور علي بن أيبك مستنجداً على التتر واتفق على خلع علي المذكور وولاية قطز حضرة كمال الدين بن العديم.

عن دورها الطبيعي في العلاقات العربية والإسلامية. ذلك أنه حتى ظهور قطز نفسه على الساحة السياسية في مصر كان بفعل الصراع الشامل الواقع في المنطقة.

وكان لهذه التطورات ما يشير إلى أهمية الدوافع الوطنية والدينية نحو المواجهة الحاسمة والرد الصارم على تمادي الخطر الخارجي في تهديد الدين والوطن والإنسان، ولم يكن ظهور الملك المظفر قطز إلا تعبيراً آخر عن حاجة الأمة للنصر. وقدرتها على صنعه على الرغم من كآبة الصورة السياسية السائدة يومئذ في العلاقات العربية والإسلامية.

الظروف التي مهدت لمعركة عين جالوت:

1 ـ سقوط بغداد وفقدان المسلمين لعاصمتهم وانتهاك التتر لأعراضهم وحرماتهم في محرم سنة 656 هـ.

2 ـ تحالف التتر مع الأرمن والصليبيين ضد المسلمين، ولم يخرج عن هذا التحالف سوى ممالك الصليبيين في الساحل السوري الذي ينتمون إلى أصل بندقي، وذلك حرصاً منهم على مصالحهم التجارية مع الشرق والتي حطمها الغزو التتري، ولكون التتر يقربون إليهم المسيحيين الشرقيين.

3 ـ انتشار الخوف والفزع في بلاد الشام ومصر من الهجمة البربرية التي يقوم بها جيش هولاكو، وأعمال القتل والنهب والسلب والتدمير والغدر.

4 ـ حرمان المسلمين من خوض معركة موحدة ضد العدو التتري الشرس المتحالف مع القوى الاستعمارية الغربية، وذلك بسبب تنافس الملوك والأمراء على السلطة والنفوذ واختلاف مواقفهم وسياستهم تجاه واقع الأمة ومصيرها (كما في صراع الأيوبيين في دمشق وحلب والمماليك في مصر).

5 ـ وكان الشعب العربي المسلم متطلعاً للوحدة والقوة لاستعادة العزة والكرامة وكف أذى الفئات والطوائف التي وظّفها التتر للنيل من دين الأمة ومقدساتها، وأرواح أبنائها وكرامتهم ومصالحهم[20].

(20) لمعرفة التفاصيل ارجع إلى كتاب البداية والنهاية الجزء 13 ص 219 وما يليها.

6 ـ زحف التتر صَوْب مصر بعد أن بسطوا سلطانهم على حلب وحماه وبعلبك والبقاع ودمشق وعبورهم فلسطين ووصولهم غزة[21].

7 ـ أرسل هولاكو وفداً من التتر يحمل رسالة إلى الملك المظفر قطز[22] تتضمن إنذاراً شديد اللهجة ممزوجاً بالاستعلاء والاستكبار والتهديد والوعيد.

وهكذا اقتربت النار من الديار المصرية وتجمع الهاربون من أهل الشام في مصر ينشدون فيها الأمن والسلام ويطلبون منها الثأر للكرامة والوطن من التتر. وراحت مصر تغلي كالبركان حيث رأى أبناؤها ما آلت إليه بلاد المسلمين في الشرق والعراق والشام، والمماليك فيها رجال حرب لا مبرر لوجودهم، فهل سيصنعها المصريون وعلى طليعتهم المماليك بقيادة الملك المظفر قطز أم سيصنعها قائد جيش التتر «كتبغانوين» الذي تولى القيادة بعد عودة هولاكو إلى بلاده؟

الاستعداد للمعركة:

(أولاً) في الجانب المصري عقد المظفر اجتماعاً للعلماء والأمراء وأعيان الدولة ورجال الجيش في يوم مشهود حافل وقف فيه الشيخ الجليل العز بن عبد السلام في الحاضرين خطيباً يذكرهم فضائل الجهاد ويحثهم عليه، ويتلو آيات الجهاد وعظمة الشهادة في سبيل الله وما أعده الله في الآخرة من أجر وثواب.

كان هذا الاجتماع الخطوة الأولى والضرورية للاستعداد للمعركة الفاصلة. ووقف الجميع وقفة رجل واحد يلتفون حول شيخهم العز وقائدهم المظفر بما فيهم أولئك المماليك الذين كانوا يعطون ولاءهم سرّاً إلى بيبرس البندقداري ويكرهون قطز ويتربصون به انتقاماً منه لسيدهم المعز أيبك الذي قتله، لقد كان الخطر الداهم من التتر خطراً على الجميع فأنساهم أحقادهم وأطماعهم ووحّد بينهم العدو الواحد. وتطوع الشباب للقتال من الصعيد والدلتا والقاهرة مزارعين وكسبه وطلاباً. وامتلأت حلبات التدريب وميادين الفروسية بهم نشاطاً واستعداداً. ولكي يتحقق النصر كان من اللازم تهيئة السلاح الضروري

(21) انظر المصور.

(22) راجع الرسالة في ملحق الموضوع.

للمعركة، والسلاح يحتاج للمال، والمال مودع في خزائن المماليك.

عرض المماليك على قطز أن يفرض الضرائب على الأهالي ويجمع منهم الأموال لشراء السلاح من أجل ضمان سلامتهم وأوطانهم، بينما كانت صيحة العلماء مدوّية بصوت الحق، تدعو المماليك أن يتنازلوا أولاً عما عندهم من النفائس والجواهر والحلي، حتى إذا ما تم ذلك وبقيت للجيش حاجة للمال تبرع الشعب بما يملك عن رضى وسخاء، وأوشك الأمر أن يدخل مجال الأخذ والرد. وحسم السلطان قطز الأمر، حيث أوفد خيرة رجاله إلى قصور المماليك يحضرون صناديقهم إلى الديوان في الوقت الذي كان فيه المماليك يحضرون لقاءً دعاهم إليه قطز بنفسه. وعندما علم المماليك بخطة قطز أدرك الجميع أن عليهم القبول بما فعل مكرهين. وقال قطز فيهم كلمات حاسمة جاء فيها:

«أيها المماليك جئتم هذه الديار لا تحملون أكثر من ثياب تستر عوراتكم، فمن أين جمعتم هذه الأموال والجواهر وقد قدم الشعب لكم خير بلاده وجهده لتكونوا درعه، فإذا ما جاءت ساعة الجهاد تخليتم وبخلتم؟».

إنها ساعة الحسم، أدرك فيها الجميع أن لا بديل للشهادة أو النصر، وبذل الأمراء، وبذل الشعب وتعاون الفريقان على النضال متربصين إحدى الحسنيين.

وأعد قطز عشرات المراكب والمجانيق وسخر الأقيان لصناعة السيوف والرماح وتدفق السلاح إلى القاهرة من كل جانب، وأصبح الجيش يغلي كالمرجل. وفي وسط هذا الاستعداد وصلت أخبار إغارات المغول على غزة والخليل وقتلهم الرجال وسبيهم النساء والصبيان وسلبهم المغانم. فقام المظفر قطز بردٍ معنوي هائل، دفع الجيش والشعب لصنع النصر، فقد أمر بالوفد التتري الذي جاءه يطلب منه التسليم بأن يُقَيَّدَ ويُطَوَّفَ به في أسواق القاهرة وحواريها، وقد مزقت ثياب أفراده وانهال الناس عليهم سباً وسخرية وسط هتافات: الله أكبر. ثم أمر قطز بقتلهم وتعليق رؤوسهم على باب زويله[23].

(ثانياً) في الجانب المغولي:

تلقى هولاكو وهو بحلب نبأ وفاة أخيه منكوخان، فسارع إلى قراقورم،

(23) الحركة الصليبية جـ2 عاشور ص1134.

ومعه معظم الجيش[24]، واستخلف القائد كتبغانوين على ما تبقى من الجيش وكان عدده عشرة آلاق مقاتل تقريباً[25] وكان كتبغا هذا تلميذ هولاكو، وقد تم على يديه احتلال البلاد من العجم إلى الشام ويحمل نفسية عدوانية حاقدة على الإسلام وأهله، وكان يحرض الطوائف الأخرى على حرب الإسلام وخاصة النصارى والأرمن ومن ناحية أخرى لم يستطع كتبغا استمالة الصليبيين الذين كانوا موجودين في الساحل السوري إلى صفه لأنهم كانوا يختلفون عن حلفاء التتر من الصليبيين الأوروبيين بسبب اختلاف المذاهب الدينية والمصالح الدنيوية.

وكانت توجد مجموعة من قوات كتبغا في غزة بقيادة «بيدرا» الذي علم بتحرك جيش المسلمين الذي كان يقوده الظاهر بيرس البندقداري نحو غزة، فطلب النجدة من كتبغا لكن كتبغا رد عليه «قف مكانك وانتظر» وأمره أن يحتفظ بغزة ولا يتخلى عنها لحين وصول الإمدادات إليه.

مقدمات المعركة وتحرك الجيش المصري إلى فلسطين:

أعد المظفر قطز خطته للقاء التتر وسط دراسة دقيقة لجميع الاحتمالات من خلال وعيه للظروف الدولية والمحيطة به والقوى التي يمكن أن تدخل المعركة إلى جانبه أو إلى جانب عدوه واتخذ لكل أمر حسابه وأعد له عدته وكان مما عمله:

(أ) وجه الحراقات عَبر نهر النيل إلى دمياط[26]، ترابط في مياهها تحسباً لهجوم صليبي مباغت.

(ب) حصن مدينة دمياط وأودع فيها قوة حربية تستطيع الدفاع عن باب مصر وردم مصب النيل هناك.

(ج) أقام حامية عسكرية في الإسكندرية بوصفها الثغر البحري المصري.

(ء) أرسل إلى الصليبيين في عكا يستأذنهم السماحة لجيوشه بعبور الأراضي التي تقع تحت سيطرتهم مستفيداً من انشغالهم بنزاعاتهم الداخلية، ومدركاً أملهم

(24) فراقروم: عاصمة الامبراطورية التترية.
(25) راجع ترجمة (كتبغا) في الملحق.
(26) نفس المرجع ص 1136.

بالثأر من التتر الذين غزوا صيدا، فوافقوا على طلبه وأذنوا لجيشه العبور.

(هـ) تقدم بيبرس البندقداري بقوة نحو غزة وهزم التتر الذين يقودهم هناك «بيدرا» وحرر غزة وطارد التتر حتى نهر العاصي.

(و) سار قطز بجيشه بحذاء الساحل، ومر بسلام في الأراضي التي يسيطر عليها الصليبيون وقد خرج أمراؤهم إلى المظفر قطز يحملون إليه الهدايا وأرادوا أن يسيروا معه نجدة فشكرهم وأخلع عليهم واستحلفهم أن يكونوا لا له ولا عليه[27].

(ي) بعث قطز إلى الأشرف صاحب حمص والسعيد صاحب الصبيبة[28] بستميلهما فقبل الأشرف.

وهكذا استفاد قطز من قاعدة عسكرية تاريخية هي البدء بالهجوم ومباغته العدو خير وسيلة للدفاع، وقد أحسن المظفر قطز اختيار زمان المعركة ومكانها والإعداد لها. فالشهر الذي وقعت فيه المعركة كان شهر «رمضان» حيث استبشر الجنود المسلمون بذكرى غزوة بدر التي وقعت هي أيضاً في رمضان. وكان النصر فيها لرسول الله والمسلمين كما كانت غزوة الفتح ودخول المسلمين مكة في شهر رمضان أيضاً.

وقد ضمن حياد الصليبيين[29] في عكا ليحفظ مؤخرة جيشه الزاحف إلى الشام وليتمكن من التزود بالميرة والمؤن والعتاد من بلاد فلسطين.

الخطة الحربية التي لجأ إليها المظفر قطز:

أخفى قطز معظم جيشه بين الأحْراش والأشجار المحيطة بعين جالوت بعد أن اتجه من عكا نحو الأردن وعبر الجليل في منطقة خصبة ومشجرة بين نابلس وبيسان وهو الأعرف بتضاريس البلاد وسكانها، فجعل من فصائله كمائن للعدو[30]، وكان قائد التتر كتبغا يعاني من الإرهاق والحروب المتواصلة ويقاتل

---

(27) نفس المرجع السابق.

(28) الصبيبة منطقة تقع جنوب جبل الشيخ حول نهر بانياس.

(29) و(30) نفس المرجع 1136.

بجيش منهك القوى، قليل العدد، مثقل بالغنائم وقد نصحه الأشرف صاحب حمص والمجير بن الزكي بأنه لا قبل له بالمظفر ما لم يصله عون من هولاكو، فرفض نصيحتهم وقرر مُهاجمة جيش المسلمين.

أحداث المعركة:

وكان إلى جانب المظفر كل من الملك المنصور صاحب حماه والأمير فارس الدين أقطاي، وقد حاول كتبغا توجيه ضربة قاصمة لجيش المسلمين وأحدث في الساعات الأولى للمعركة صدعاً في جبهتهم. واستبسل قطز وأمر الجموع المختفية بين الأشجار بأن تدخل المَعركة وفوجيء العدو بالحشود، ووقف قطز في قلب المعركة وقد ألقى خوذتهُ أرضاً وصاح بأعلى صوته وهو يقاتل وإسلاماه... وإسلاماه وتقدم نحوه خمسة من خيرة فرسانهم يستهدفونه فتصدى لهم وقتلهم الواحد تلو الآخر وأوشك قطز أن يهوى من حصانه فإذا بفارس ملثم يشق الصفوف وينقذه ويتلقى الطعان عنه، ويصاب الفارس الملثم الذي تبين بعدئذ أنها زوجته ابنة خاله جُلُّنار (جهاد).

ويشق قطز طريقه عبر جيش التتر ليقاتل قائدهم كتبغا ويلتحم سيفاهما وتشتد المبارزة ويهوي الأمير آقوش الشمسي بسيفه على كتبغا فيسقط أرضاً وتتحطم جبهة العدوان وتتعالى صيحات الله أكبر، الله أكبر وتهوي جبهة التتر ويتساقط فرسانهم ويلوذون بالفرار، ويتقدم القائد بيبرس البندقداري جموع المقاتلين على رأس قوة من المماليك البحرية بشق صفوف العدو ويتعقب فلولهم برجولة فائقة وبطولة نادرة، وتنتشر جثث التتر في ذلك السهل العظيم ويقع في يد بيبرس الكثير من الأسرى وتتحطم أسطورة العدو الذي لا يقهر، وكان من بين الأسرى ابن كتبغا[32] وكان شاباً فأحضر بين يدي قطز فسأله: أهرب أبوك؟ قال إنه لا يهرب، فأمر قطز الجند بأن يفتشوا عن جثته فوجدوه بين القتلى وصرخ ابنه باكياً متحسراً. فلما تحقق قطز من مقتل كتبغا خر ساجداً لله ليحمده على نصره[33].

---

(31) البداية والنهاية جـ 13/220.

(32) البداية والنهاية جـ 13 ص 227.

(33) ابن خلدون جـ 5 ص 379.

نتائج المعركة:

1 ـ هزيمة التتر ومقتل قائدهم كتبغا وعدد كبير من رجاله وأسر آخرين.

2 ـ ملاحقة فلول التتر في كل مكان بقيادة بيبرس.

3 ـ طلب الملك الأشرف صاحب حمص الأمان من قطز فأمنه وحين وصل إليه أكرمه وأقره على ما بيده وهو حمص ومضافاتها، أما الملك السعيد صاحب الصبيبة فقد وقع أسيراً وأحضر بين يدي المظفر قطز فأمر بضرب عنقه بسبب إساءته الرد على رسوله إليه وقتله وبسبب ما ارتكبه من فسق وطغيان.

4 ـ تحررت دمشق من الخيانة والعمالة والعدو المغولي في السابع والعشرين من رمضان وارتفعت رايات الإسلام وعقدت الاحتفالات بمقدم قطز إلى دمشق.
5 ـ زحف المسلمون إلى حماه وحرروها من التتر وأعوانهم.

6 ـ ندم الصليبيون على موقفهم الذي اتخذوه إبان المعركة بعدم تحالفهم مع كتبغا (النسطوري المذهب النصراني الدين المغولي الولاء) لأن انتصار قطز على التتر كان مقدمة نهايتهم العاجلة في العالم الإسلامي وأتاحت الفرصة للمماليك لتصفية الوجود الصليبي في المنطقة العربية[34].

7 ـ وكان من أعظم النتائج دخول بعض التتر في الإسلام ومباركتهم هذا الانتصار العظيم. فقد بعث بركة خان رسالة إلى الظاهر بيبرس عبر فيها عن تعصبه للإسلام وحربه للتتر حيث قال:

«لقد حاربت هولاكو الذي هو أخي من لحمي ودمي إعلاءً لكلمة الله العليا وتعصباً لدين الإسلام، لأنه باغٍ والباغي كافر بالله ورسوله»[35]، وكان بركه خان هذا زعيماً كبيراً من التتر اعتنق الإسلام، ولعب دوراً طيباً في نشره بين التتر.

8 ـ منحت هذه المعركة المماليك تأييداً شعبياً دينياً وسياسياً، ورسخت أقدام

---

(34) الحروب العلمية جـ2 ص 11 العاشور.
(35) من كتاب الأبطال لمحمد رجب بيومي ص 177.

دولتهم التي استمرت في المنطقة العربية عدة قرون وتوحدت خلالها مصر وسورية.

9 ـ حققت هذه المعركة المقولة التي تقول: إن في الإسلام قوى كامنة عظيمة تتفجر حين تتاح لها الفرصة وتنطلق بالمسلمين من عقالهم إلى حيث العزة والكرامة، وقد حقق المظفر قطز وشيخه العز بن عبد السلام وكذلك صلاح الدين الأيوبي من قبلهم هذه المقولة. ذلك أن قيادة الأمة وعلماءها ركنان أساسيان في أي تحول إيجابي لواقعها.

وثائق تاريخية لها علاقة بالمعركة:

أولاً: التحالف بين الصليبيين والتتر[36]:

أرسل الباب أنوسنت الرابع مبعوثاً من الفرانسيسكان اسمه خادي بلانو كاربنيس سنة 1245 إلى خاقان المغولي في قراقورم لدعوته إلى المسيحية، لكن تلك السفارة فشلت بسبب اشتراط الخاقان دخول المسيحيين الغربيين تحت السيادة المغولية.

وفي ديسمبر 1248 وفدت على نيقوسيا سفارة تألفت من اثنين من نساطرة الموصل هما (داود ومرقص) موفدان من قبل جغطاي خان نائب الخاقان الأعظم في القوقاز وفارس، وكان الغرض من تلك السفارة عقد تحالف عسكري بين الصليبيين والمغول ضد الأيوبيين في الشام من ناحية والخلافة العباسية في بغداد من ناحية أخرى.

رد الملك لويس على المغول بإرسال سفارة من ثلاثة أعضاء من الرهبان الدومنيكان إلى المغول غادرت قبرص في كانون الثاني 1249 م محملة بالهدايا من الملك الفرنسي إلى جغطاي خان في أذربيجان، لكن تلك السفارة لم تحقق الهدف الكامل فتوجه لويس للتحالف مع مغول وسط روسيا، ثم أرسل سفارة إلى سرتاق بن باطور وكان مسيحياً لطلب التحالف ضد المسلمين، وغادر الملك لويس التاسع الشام إلى فرنسا عام 1255 م كما عقد تحالف أرمني مغولي لمحو الإسلام.

---

(36) الحركة الصليبية ـ عاشور ـ جـ2 ص 1100 -1102.

ثانياً: العز بن عبد السلام (577 هـ / 1181 م ـ 660 هـ / 1262 م):

عبد العزيز بن عبد السلام بن أبي القاسم بن الحسن السلمي الدمشقي عز الدين الملقب بسلطان العلماء فقيه شافعي بلغ رتبة الاجتهاد، ولد ونشأ بدمشق زار بغداد سنة 599 هـ وأقام شهراً وعاد إلى دمشق فتولى الخطابة والتدريس بزاوية الغزالي، ثم الخطابة بالجامع الأموي.

ولما سلم الصالح إسماعيل بن العادل «قلعة صفد» للفرنج اختياراً أنكر عليه العز بن عبد السلام ذلك ولـم يَدْعُ له في الخطبة فغضب عليه وحبسه ثم أطلقه فخرج إلى مصر فولاه صاحبها الصالح نجم الدين أيوب القضاء والخطابة ومكنه من الأمر والنهي ثم اعتزل ولزم بيته.

ولما مرض أرسل إليه الملك الظاهر بيبرس يسأله هل في أولادك من يصلح لوظائفك؟ فقال لا وتوفي بالقاهرة.

من كتبه: التفسير الكبير والإلمام في أدلة الأحكام، وقواعد الشريعة والفوائد، وقواعد الأحكام في إصلاح الأنام، وترغيب أهل الإسلام في سكن الشام، وبداية السول في تفضيل الرسول، والفتاوى، والغاية في اختصار النهاية (فقه) وله كتاب الإشارة إلى الإيجاز في بعض أنواع المجاز (قرآن)، ومسائل الطريقة (تصوف) والفرق بين الإيمان والإسلام، وكتاب مقاصد الرعاية[37].

ثالثاً: رسالة هولاكو إلى المظفر قطز سلطان مصر:

«من ملك الملوك شرقاً وغرباً، القائد الأعظم»:

باسمك اللهم باسط الأرض ورافع السماء يعلم الملك قطز وسائر أمراء دولته وأهل مملكته بالديار المصرية وما حولها من الأعمال... أنّا جند الله في أرضه خلقنا من سخطه، وسَلَّطنا على من حل به غضبه، فلكم بجميع البلاد معتبر وعن عزمنا مزدجر، فاتعظوا بغيركم وأسلموا إلينا أمركم قبل أن ينكشف الغطاء فَتَنْدَمْ، ويعود عليكم الخطأ فنحن لا نرحم من بكىٰ ولا نرق لمن شكا،

---

(37) الأعلام للزركلي.

وقد سمعتم أننا فتحنا البلاد وطهرنا الأرض من الفساد وقتلنا معظم البلاد فعليكم بالهرب وعلينا الطلب، فأي أرض تأويكم؟ وأي طريق تحميكم؟ وأي بلاد تنجيكم؟ فما لكم من سيوفنا خلاص ولا من مهابتنا مناص فخيولنا سوابق وسهامنا خوارق وسيوفنا صواعق وقلوبنا كالجبال وعددنا كالرمال فإنكم أكلتم الحرام وخنتم العهود والإيمان وفشا بينكم العقوق والعصيان فأبشروا بالمذلة والهوان، فاليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تستكبرون في الأرض بغير الحق وبما كنتم تفسقون،﴿وليعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون﴾ فالحصون لدينا لا تمنع والعساكر لقتالنا لا تنفع ودعاؤكم علينا لا يسمع، فأسرعوا برد الجواب قبل أن تضرم الحرب نارها وترمي نحوكم شرارها فلا تجدون منّا جاهاً ولا عزاً ولا كافياً ولا حرزاً وتصبح بلادكم منكم خالية فقد أنصفناكم إذ أرسلناكم وما بقي لنا مقصد سواكم، والسلام علينا وعليكم وعلى من أطاع الهدى وخشي عواقب الرَّدى فأطاع الملك الأعلى[38].

رابعاً: خطبة قطز بعد انتصاره بمعركة عين جالوت:

«أيها المسلمون إياكم والزهو بما صنعتم، ولكن اشكروا الله واخضعوا لقوته وجلاله، إنه ذو القوة المتين، وما يدريكم لعل دعوات إخوانكم المسلمين على المنابر في الساعة التي حملتم فيها على عدوكم من هذا اليوم العظيم يوم الجمعة وفي هذا الشهر العظيم شهر رمضان كانت أمضى على عدوكم من السيوف التي بها ضربتم، والرماح التي بها طعنتم والقسي التي عنها رميتم، واعلموا أنكم لم تنتهوا من الجهاد وإنما بدأتموه وأن الله ورسوله لن يرضيا عنكم حتى تقضوا حق الإسلام بطرد أعدائه من سائر بلاده، ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله، ألا فترحموا على إخوانكم الذين علم الله ما في قلوبهم من الإيمان والخير، فاختار لهم الشهادة والجنة واختار لكم النصر والبقاء، لتعودوا للجهاد في سبيله، وما عند الله خير وأبقى، وترحموا على أمة الله، سلطانتكم، فقد صدقت الله ما عاهدته عليه وآثرت ما عنده على ما عند عبده قطز!.

وهنا أدركته الرقة فبكى وعلا نحيبه، فبكى المسلمون جميعاً وتعالت

(38) من كتاب مع الأبطال لمحمد رجب البيومي ص 160.

أضواتهم بالنحيب، وهم يقولون يرحمها الله... يرحمها الله!...

ثم تلا السلطان قول الله عز وجل:

﴿ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون، فرحين بما آتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ألاّ خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾ صدق الله العظيم[39].

المراجع

البداية والنهاية لابن كثير.
.تاريخ ابن خلدون.
الحركة الصليبية جـ2 د/ عاشور.
مع الأبطال لمحمد رجب بيومي.
المختصر لأبي الفداء.
الأعلام للزركلي.
والإسلاماه لباكثير.
النجوم الزاهرة.

(39) من كتاب والإسلاماه/ لباكثير/ ص 210.